

يعود سعيد في رائعته الأخيرة *On Late Style* - في الأسلوب المتأخر، ، الصادرة بعد الوفاة، إلى نقد إيديولوجيات الانتماء والهوية على أنها أخطر ما خلفه العصر الإمبريالي، في نص يرقى إلى مستوى الوصية الفكرية: "إنّ الهوية هي العملية التي تتسلط بها الثقافة الأقوى والمجتمع الأرقى بواسطة العنف على شعوب يتقرر أنها شعوب دونية، بمقتضى عملية فرض الهوية تلك. إنّ الإمبريالية ما هي إلا عملية تصدير للهويات"[1]. درءاً لمثل هذه الأخطار، وهي تحديداً أخطار تشريق الشرقيين، ينضمّ سعيد إلى فرانتز فانون في الدعوة إلى تحويل الوعي الوطني - القومي، الذي ساد فترة النضال ضد الاستعمار، إلى وعي اجتماعي في الحقبة الاستقلالية، أي الانتقال من التحرر الوطني - القومي من المستعمر إلى التحرر الاجتماعي الداخلي، أي بناء مجتمع الحرية والمساواة وبناء الثقافة الجديدة على أنقاض ثقافة المستعمر والمجتمع التقليدي.

فرانتز فانون (1925-1961) وبلحظته، وهي لحظة دالة ومؤثرة في تاريخ الكفاح ضد الاستعمار. ولد فانون في المارتينيك لأسرة يتيح لها عمل عائلها تعليم أولادها تعليماً كولونياً في المدرسة الفرنسية. يعبر الولد من البراءة إلى التجربة، ومن وهم كونه فرنسياً إلى التعرّف على واقع العلاقات الاستعمارية؛ في فرنسا يكشف فانون لون بشرته، والغربة الكامنة في هذا اللون، والعنف العنصري، فيكتب وهو في السابعة والعشرين من عمره كتابه الأول: بشرة سوداء أقنعة بيضاء عام 1952. وفي عام 1953 ينتقل فانون للعمل كطبيب نفسي في مستشفى البلدية - جوانفيل، المستشفى الأشهر في الجزائر لعلاج الأمراض النفسية والعصبية، ثم يترك عمله فيها ب خطاب الاستقالة الشهير:

"لما يقرب من ثلاث سنوات وضعت نفسي وبشكل كامل في خدمة هذا البلد وسكانه. لم أوفر جهداً ولا اهتماماً. ولكن ما جدوى الحماس والتفاني إن كان الواقع اليومي مجرد نسيج من الأكاذيب والخسة وازدراء الإنسان؟... وإن كان الطب النفسي هو الأداة الطبية التي تهدف إلى تمكين الإنسان من تجاوز غربته في البيئة المحيطة به، فعلي أن أؤكد أن العربي غريب بشكل دائم في بلاده، يعيش في حالة من الاغتراب المطلق... لشهور عدة كان ضميري موقعا لسجل لا يغتفر، انتهى بالعزم على ألا أياس من الإنسان، أي ألا أفقد الأمل في نفسي". [2]

ويرى بعض المفكرين الغربيين أن خطاب مرحلة ما بعد الاستعمارية يفتقد إلى مشروع محدد ويكتفي بتحميل الاستعمار مسؤولية الأوضاع المزرية التي تعيشها الدول التي عانت في السابق من الاستعمار. وتبرز في هذا السياق رواية منعطف النهر للكاتب ف. س. نايبول الحائز على جائزة نوبل للأدب، والتي رأى فيها بعض

الباحثين تحميله الشعوب المستعمرة مسؤولية العنف والفساد المتفشي في مجتمعاتها. ويقول إدوارد سعيد في هذا السياق "إن نابيول يعتق الجلاذ ويحمل الضحية، مسؤولية ما آلت إليه الأمور معتبراً أنه تحول بإرادته إلى شاهد على الاضطهاد الذي يمارسه الغرب". [3]

كما أثار كتاب سعيد الاستشراق استياء عدد من الباحثين الغربيين أو المستشرقين كأرنست غيلنر، برنارد لويس، روبرت إيروين وأفيشاي مارغليت. وذهب هذان الأخيران إلى اعتبار أن دوافع سعيد ما هي إلا محض دوافع قومية تهدف إلى الدفاع عن هويته القومية في مواجهة الليبرالية والعلمنة واتهامه بتنميط صورة الغرب في كتاباته. كما رأى بعض المنتقدين أن سعيد لا يأخذ بعين الاعتبار وجود أصوات مضادة ومناهضة للاستعمار في المجتمعات الغربية

وإلى جانب كتب إدوارد سعيد الهامة في نقد الاستشراق والعقل الغربي، فقد أسهم بالعديد من الدراسات والمقالات التي تدافع عن الإسلام وترفض تنميطه ووصفه بالأصولية أو بالعنف قبل وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ومن أهم ما كتبه في هذا السياق نقده لكتابات بعض المؤرخين التي تتسم بالتبسيط والتحيز في وصفها للإسلام مثل كتابات المؤرخ برنارد لويس بالإضافة إلى نقده الشديد لمقولة صمويل هانتجتون عن صراع الحضارات التي وضع فيها الحضارة الإسلامية في موضع العدو الحتمي للغرب.

وفي حلبة المقاومة بالفكر التي دأب سعيد من خلالها للدفاع عن العرب والإسلام كان سابقاً ومبدعاً يأخذ بتلاييب أحدث النظريات الغربية، ويبنى عليها أو يطورها لخدمة قضيته المركزية وهي القضية الفلسطينية. ففي الوقت الذي كانت فيه نظريات ما بعد الحداثة ونقد العقل الغربي والاتجاهات ما بعد البنيوية غير معروفة لجل المجتمع الثقافي الأمريكي، كان إدوارد سعيد يستخدم أهم مقولات روادها مثل ميشيل فوكو وجاك دريدا، ويطورها ويبنى عليها خاصة مقولة العلاقة بين المعرفة والقوة موضوع عادة ما يكون محملاً بقيم الطرف الأقوى وتخدم أهدافه - ( بحيث نجد إدوارد سعيد يؤلف كتاباً كاملاً يتخصص في هذه المسألة، والكتاب في حقيقة الأمر، هو عبارة عن ست محاضرات أُلقيت في إذاعة البي بي سي عام 1993، وقد عرفت بمحاضرات ريث نسبة لمقدمة البرنامج، وجمعها سعيد فيما بعد في كتاب موسوم بعنوان: *Representation of the Intellectual* "تمثيلات المثقف" -).

إن المقولة التي رأي فيها فوكو بأن ما يوصف بأنه إنتاج علمي استخدمها سعيد ومقولات أخرى مشابهة لهذه المقولات من أجل فضح الأساطير المتداولة حول العرب والمسلمين بشكل عام، والأساطير المستقرة في أذهان الرأي العام الأمريكي حول القضية الفلسطينية علي وجه الخصوص. وفي هذا السياق كانت نقطة انطلاق إدوارد سعيد هي تجريد الدعاية الصهيونية من إحدى أهم مقولاتها وهي الإدعاء برفض

الآخر لهم وعدم اعترافه بمعاناتهم، فعلي العكس من ذلك، انطلق إدوارد سعيد في دفاعه عن القضية الفلسطينية من الاعتراف بتاريخ معاناة اليهود في أوروبا ولكن دون أن يكون ذلك مدخلا لتبرير حرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه و غرض الطرف عن جرائم الاحتلال الإسرائيلية.

ومن ثم كان إدوارد سعيد في منطلقاته الفكرية والأخلاقية، ومنهجه للمقاومة اقتحاميا، يسعى بها "لمخاطبة الضمير الإنساني وملاقاته على أرضية مشتركة، عن طريق الاستناد إلى مقولات أخلاقية إنسانية عامة"، [4] بهدف توسيع نطاق ومجالات المقاومة، ودخولها إلى مضمار المقاومة بالفكر إلى جانب ما سماها (المقاومة بالغضب) و(المقاومة بالتفاعل)، بدلا من المقاومة بالمقاطعة والعنف والعمليات الانتحارية المتكررة التي تنسب في قتل أرواح الأبرياء.

إن الانطلاق من المبادئ الإنسانية، والقيم الكونية كان يكفل التواصل مع عوالم أخرى تتشابه في المنطلقات الأخلاقية، ولا يجعل فكر المقاومة محصورا في الجماعة الثقافية والسياسية، ومن ثم تمكن سعيد من نقل القضية الفلسطينية من آفاقها السياسية والجغرافية والتاريخية المحددة إلى رحابة الفكر والضمير الإنساني العالمي. [5]

وفي ذات السياق يقوم إدوارد سعيد بتحليل رواية السوداني المغترب الطيب صالح الذي لم يكن من دعاة العنف، لا في سلوكه الشخصي، ولا في علاقاته مع الآخرين، ولا في عموم أدبه، ولكن وعيه الثقافي تشكل في حقبة كان العنف فيها بمثابة الفلسفة التي تبناها المقاومون للمشروع الاستعماري. ولهذا تبنى، في الطيب صالح في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال"، ضربا من العنف، نصطلح على تسميته بـ "العنف الثقافي". ولعل الطيب صالح اهتدى إلى هذا العنف، وهو يصوغ هذه الفكرة في روايته، بما ورد في مفتتح كتاب "معذبو الأرض" للطبيب والنائب المارتنيكي فرانتر فانون من أن "محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائما". [6]

صدر كتاب فانون قبل نحو خمس سنوات من صدور رواية الطيب صالح. وقد كُتب على خلفية نشاط حركات التحرر الإفريقية، واستثمر مصطفى سعيد (وهو بطل رواية الطيب صالح) مفهوم العنف، وأراد به الشفاء من جرح استعماري. وقد شغلت تلك الفكرة الفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر الذي وضع تقديما لكتاب معذبو الأرض وأكد فيه على أن "علائم العنف لا يستطيع لين أن يمحوها، فالعنف وحده هو الذي يستطيع أن يهدمها؛ ذلك أن المستعمر يُشفى من عصاب الاستعمار، بطرد المستعمر من أرضه بالسلاح، فهو حين يتفجر غضبه يسترد شفافيته المفقودة، بذلك يعرف نفسه بمقدار ما يكون قادراً على صنعها". [7]

استعاد مصطفى سعيد شفافيته بعد أن مارس العنف؛ لأنه كافأ عنفا بعنف، فرحلته الفردية إلى الشمال كانت مدفوعة بهاجس الثأر، وهي ردّة فعل على التورط الإنجليزي في السيطرة على بلاده. وقد لاحظ إدوارد سعيد أنه يقوم بدور معاكس لما قام به

كورتز في رواية قلب الظلام لجوزيف كونراد، فكورتز "يرحل إلى الأقاليم السوداء فيما يرحل مصطفى سعيد إلى الأقاليم البيضاء". [8]

وهذا ليس الفارق الوحيد بينهما، إنما الفارق المهم هو أن الأول شأنه شأن روبنسن كروزو في رواية ديفو يرمز إلى الرجل الأبيض الذي يؤمن بنسق من القيم الفكرية والدينية والأخلاقية التي توظف لإنقاذ الآخر من خموله وتخلّفه، وتحت الوهم الخادع بتغيير وضعه الآخر يتم تطبيق برنامج السيطرة الاستعمارية بوجوهه الثقافية السياسية والاقتصادية، أما الثاني فلا يسكنه هاجس التفوق، إنما هو يدفع بالعنف عفا كان اختزله إلى كائن سلبي، فرحل طالبا بالثأر في عقر دار الغازي الأصلي. كان يريد أن يردّ على أولئك الذين أرادوا مسخه حينما علّموه كيف يذعن لهم ليقول نعم بلغتهم. وجدير بالذكر أن أولى العبارات الإنجليزية التي لفتها كروزو الأبيض لفرايدي الملّون، هي نعم سيدي. وهو الأمر نفسه الذي فعله المستعمرون في رواية الطيب صالح، تعليم السودانيين كيفية قول نعم بلغتهم.

ضعيف هذا العرض البروفيسور والمفكر الفلسطيني، الراحل إدوارد سعيد، من خلال الترحال مع الاستجابات الفكرية القيمة التي أجراها معه ديفيد بارساميان، تحت عنوان "إدوارد سعيد: الثقافة والمقاومة". [9] وفي تقديمه لهذا الكتاب يذكر لنا ديفيد بارساميان أن السؤال الأول الذي استقبله به إدوارد سعيد في مكتبه بجامعة كولومبيا كان: "هل لديك أسئلة وجيهة"؟ [10] ثم يذكر لنا أن التوتر الذي كان يعتريه قبيل لقائه بمضيفه قد تَبَدَد واختفى فقط عندما ألقى بارساميان مقاطع من شعر محمود درويش، حينئذ فقط انطلق في الحديث الذي انتهى إلى إجابات تلقائية، من دون مراجعة للأسئلة أو إجراء تمرينات عليها.

وبَدَّ هي أن يطرح سعيد هذا الاستفسار عن طبيعة الأسئلة التي من المفروض أن يتطرق إليها بارساميان، فالرجل كان مطلوباً وملاحقاً من قبل مختلف المنابر الإعلامية العربية والغربية على حد سواء. وكثيراً ما اشتكى من كثرة الذين قدموا للتحدث معه دون إلمام بأي شيء له علاقة بالتزامه وانتمائه، وعلى أي حال، كما يشير إلى ذلك محمد شاهين في تقديمه للكتاب، فإن تميّز الراحل هو الذي جعل بارساميان يصف إدوارد سعيد بأنه رجل نهضة موحياً لنا بأن إدوارد قد نهض بنا من عالم المجرّد الضائع إلى عالم المحسوس، الذي تلقاه كل يوم مثلما نهض علماء أوروبا بمجتمعهم من ظلمات العصور الوسطى إلى النور.

تَمَكَّن إدوارد سعيد من اختراق حجب التقاليد الثقافية الغربية التي شيدت على مدى عقود طويلة في القرنين الماضيين، واستطاع أن يحول الأنظار إلى ما هو هام وحيوي وكوني، وقد قدم لنا مساهمة جلية في مجال الثقافة شهد العالم له بها، بدءاً من محاضراته التي دعي لإلقائها في هيئة الإذاعة البريطانية، وهي سلسلة المحاضرات التي دعي لإلقائها مشاهير العالم من أمثال برتراند راسل، ونُشرت فيما بعد تحت عنوان "صورة المثقف" والتي دعا فيها المثقف إلى أن يجهر بالحقيقة في وجه

السلطان، وإلى أن يكون المثقف هاويا لا مهنيا، بمعنى أن يكون حرا، إلى كتابه "الثقافة والإمبريالية" الذي أصبح مرجعا مهما في ميدان الثقافة.

يُشبهه بارساميان إدوارد سعيد بالملاح القديم الذي أتى إلى هذا العالم من دون هوية محدّدة (وقد ذكر ذلك عن نفسه في غير مناسبة) وربما يكون هذا ما دعا البروفيسور جورج شتاينر إلى القول: "إن إدوارد سعيد نص مفتوح على العالم".

ولنبداً بقراءة ضيف العرض لأم الأحداث عند العرب والمسلمين خلال القرن الأخير، ونتحدث طبعاً عن القضية الفلسطينية، خاصة وأنه دفع ثمنا باهظاً بسبب مكانه البارز في مشهد القضية الفلسطينية، حيث وصم بأنه "بروفيسور الإرهاب" ودعته قائمة الدفاع اليهودية بـ "النازي"، وتم إحراق مكتبه في جامعة كولومبيا، وتلقى هو وأفراد عائلته "تهديدات بالموت لا حصر لها" كما كتب إدوارد نفسه.

حدث هذا في عز صراعه - منذ أوائل التسعينيات - مع مرض سرطان الغدد اللمفاوية، وكان يمضي الوقت بين المشافي وخارجها، إما على وشك البدء في دورة من العلاج أو بصدد الانتهاء منها. وتمكن خلال ذلك كله من الكتابة وإلقاء المحاضرات. إن خصومه يريدونه صامتا، ولكنه يقول في واحدة من المقابلات التي يضمها هذا الكتاب: "ذلك ما لن يحدث إلا إذا مت".

منذ استقالته من المجلس الوطني الفلسطيني عام 1991، أصبح سعيد واحداً من أبرز المناهضين علناً للراحل ياسر عرفات ولما يُسمّى بعملية السلام، وظل صوتاً متقدماً للمقاومة وسط كل اللغط الذي ساد قبل وبعد توقيع اتفاقية أوسلو في الحقيقة الجنوبية للبيت الأبيض في شتنبر عام 1993، وقد أدرك على الفور معنى أوسلو وأسماءها "فرساي الفلسطينية"، وهو الذي قال لمحمد شاهين مُعلقاً على ذلك الحدث: "كان كلينتون أشبه بإمبراطور روماني يجلب ملكين تابعين من ملوك الإقطاعيات إلى بلاطه الإمبراطوري ويدفع بهما إلى التصافح".

ومن الأمثلة الغارقة في الدراماتيكية، والمتولدة عن "اتفاقات السلام"، المثال الخاص بمدينة الخليل: فهي مدينة عربية أساساً، ولم يكن فيها أي يهود قبل عام 1967، لكنهم استطاعوا أن ينشئوا مستعمرة بالقوة بقطنها من ثلاثمائة إلى أربعمائة يهودي داخل مدينة تضم حوالي مائة وعشرين إلى مائة وثلاثين ألفاً من السكان العرب، هؤلاء المستوطنون اليهود الذين يشكلون ما لا تزيد نسبته عن 0,3% من عدد السكان يسيطرون الآن على 20% من مساحة المدينة بفضل عملية السلام، ويقع الجزء الذي يحتلونه بالضبط في منتصف المنطقة العربية وليس في الضواحي، وهكذا فإنهم يتجولون في المدينة محاطين بأفراد الجيش الذين يحمونهم ويوزدونهم بالأسلحة.

يصف إدوارد سعيد إسرائيل بأنها الدولة الوحيدة في العالم التي تتلقى أكبر حجم من المساعدات العسكرية والاقتصادية الأمريكية التي أصبحت تقارب الآن نحو 130 بليون دولار بقيمة الدولار الحالية، كما أن كل شخص أمريكي ذي شأن،

سواء كان مرشحا في مقاطعة صغيرة في شمال ولاية نيويورك أو منافسا على رئاسة الدولة، يترتب عليه أن يعلن عن نفسه/أو نفسها كواحد من المؤيدين لإسرائيل دون قيد أو شرط، وهذا ما نعابنه هذه الأيام مع العد العكسي للانتخابات الرئاسية الأمريكية. ثم إن الإدارة الأمريكية تصطف في المعسكر الإسرائيلي إلى حد كبير، يضيف سعيد، وكل المعلومات المتوفرة عن المفاوضات التي جرت خلال السنوات السبع المنصرمة حول عملية السلام تقول بأن الولايات المتحدة قد تبنت في الحوارات كلها وجهة النظر الإسرائيلية وشكلت ظهيرا لإسرائيل، ويقف هنا كثيرا عند مجموعة من المؤشرات التي تزكي هذا التقييم، منها على سبيل المثال، أن كل المفوضين الذين انخرطوا في عملية السلام، بدءا من دينيس روس ومارتن إنديك وانتهاء بأهارون ميلر، إنما هم مستخدمون سابقون في اللوبي الصهيوني أو موالون له منذ أمد طويل.

ومادام الإرهاب موضوع الساعة بامتياز على الصعيد العالمي، يهنا التوقف عند قراءة الراحل لهذا المأزق، وفيما يثبت سعة اطلاع المحاور (بارساميان)، نراه يستشهد بمقولة للراحل وصديق سعيد، إقبال أحمد (الذي مات في الباكستان عام 1999) وصرّح بها في عام 1998، ومفادها أن "أسامة بن لادن يشكل مؤشرا على أشياء ستأتي" وعندما طلب منه بارساميان أن يوضح ما ذهب إليه، قال إقبال: "لقد غرست الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وجنوب آسيا بذورا سامة جدا هي الآن في طور النمو، بعضها نضج وبعضها لم يزل في طور النضوج، ونحن نحتاج إلى فحص الأسباب وراء غرسها وما الذي تمخضت عنه وكيف ينبغي أن تحصد. إن الصواريخ لن تحل المشكلة". وجاء رد سعيد متقاطعا مع ردود جماعة نعوم تشومسكي والراحل هو ارد زن والقلة القليلة من المفكرين الأمريكيين الذين يحترمون أنفسهم، ففرضوا احترام الغير عليهم، وضمن هذا الغير، نجد بطبيعة الحال المنتبِع العربي والمسلم.

فقد لاحظ أولا أن الإرهاب أصبح بمثابة ستار تمت صناعته منذ نهاية الحرب الباردة على أيدي صنّاع السياسة في واشنطن، شأنهم شأن مجموعة كاملة من الناس من أمثال صامويل هنتنغتون وستيفن إميرسون والذين يملكون حصتهم من ذلك الإصرار. وقد تم فبركة المسألة لإبقاء السكان خائفين، غير آمنين، ولتبرير ما ترغب الولايات المتحدة فعله على سطح الكوكب. وبهذا فإن أي تهديد لمصالحها، سواء تمثلت بالنفط أو بمصالحها الجيو - استراتيجية في أي مكان آخر، أصبح يوصم بالإرهاب، وهو بالضبط ما دأب عليه الإسرائيليون منذ أواسط السبعينيات فيما يخص المقاومة الفلسطينية لسياساتهم، ولعله من المثير للاهتمام، يضيف سعيد، أن كل تاريخ الإرهاب يجد جذوره في السياسات التي انتهجتها الإمبريالية، فقد استخدم الفرنسيون كلمة "الإرهاب" لوصف كل شيء قام به الجزائريون لمقاومة الاحتلال الفرنسي الذي بدأ عام 1730 ولم ينته حتى عام 1962 كما استخدم البريطانيون الفكرة ذاتها في كل

من بورما وماليزيا، ليخلص إلى تعريف طريف ودقيق للإرهاب، بحيث يصبح "هو أي شيء يقف في وجه ما نرغب "نحن" في فعله".

وبما أن للولايات المتحدة - وهي القوة العالمية العظمى الوحيدة - مصالح أو هي تتظاهر بأن لها مصالح في كل مكان، فإن الإرهاب يصبح أداة ملائمة لإدامة هذه الهيمنة وتأييدها. وينظر إلى الإرهاب الآن بوصفه مقاومة للعولمة، وثمة إصرار على إقامة هذه الصلة، مستشهدا هذه المرة بالذي صدر عن أروندهاتي روي (ناشطة هندية شهيرة)، والتي لاحظت بأن القوى الغربية تهوّل نحو وصم حركات المقاومة التي تقوم بها الشعوب ضد الحرمان، ضد البطالة أو ضد هدر الموارد الطبيعية.. بالإرهاب.

نختم هذا العرض بالعروج على موضوع الهولوكوست، ومأزق اختزال الكيان العبري للمصطلح في الحالة النازية فقط، دون سواها. ومن المؤسف أن يكون الأتراك المسلمون متورطون أيضا في هذا المأزق، من خلال إصرار القيادات التركية، القديمة والجديدة، على إنكار الهولوكوست الذي اقترفته الحكومة التركية في حق الأرمن في بدايات القرن العشرين، والمُخجل، أن ينخرط الإسلاميون أيضا في سياسة الإنكار.

لقد أصاب إدوارد سعيد عندما عقد تشابها دقيقا بين السياسة التركية والسياسة الإسرائيلية في هذا الصدد. فلدى كليهما مصلحة في كبت المعرفة أو الإقرار بما اقترفته الحكومة التركية في حق الأرمن، ويورد مثلا مركبا: في سنة 1983 كان هناك برنامج إذاعي إسرائيلي حكومي والذي كان يحاول فهم ما جرى للأمن. وقد مُنِع بث البرنامج فقط لأنهم استخدموا كلمات "هولوكوست" و"الإبادة العرقية" والتي تستخدم في إسرائيل لوصف ما حدث للإسرائيليين وحسب. وما فعله بيريز آنذاك إنما يصب في خط إدامة هذا النوع من السياسة، فعلى نحو يتسم بالغباء، وبدلا من محاولة توسيع دائرة الاعتراف والتفهم لما قد يحدث للشعوب سواء كانوا روانديين أو أرمن أو بوسنيين أو آخرين في أي مكان من العالم، حيث حدثت مثل هذه الأشياء الفظيعة وحيث لكل البشر مصلحة في أن لا تحدث مرة أخرى، فإنهم يريدون صباغة ذاكرة يجري تركيزها بشدة على مجموعات معينة، وليس على مجموعات أخرى عانت من تلك الكوارث التاريخية.

الحديث عن المتاجرة بالهولوكوست، يحيلنا على عمل رائع للمفكر الأمريكي نورمان فينكلشتين، والذي أصدر كتابا عنوانه "صناعة الهولوكوست" (والصادر هو الآخر عن نفس دار النشر البيروتية)، وقد نوه إدوارد سعيد بعمل فينكلشتين، مشيرا إلى أن هناك مجهودات مركزة في هذا الولايات المتحدة لتحويل الهولوكوست إلى نوع من الدين الديني، ولجعله موضوعا للدراسة العلمية بمعنى خصوصيته باعتباره جزءا من التجربة اليهودية ومقصورا فقط على التجربة اليهودية، بينما في الحقيقة يجب النظر إليه باعتباره جزءا من ظاهرة أوسع بكثير، بما في ذلك الهولوكوست الذي

جرى في فلسطين بحق السكان البدائيين الأصليين، وينبغي بالتالي أن يضم مفهوم الهولوكوست تلك الآلام والعذابات والتجارب الفظيعة التي تعرض لها الأمريكيون الأفارقة الذين جلبوا بالملايين ليعانوا من العبودية والرق. وهنا تبرز أهمية عمل فينكلشتين، حيث تعرف إلى صناعة الهولوكوست بشكل صائب على أن لها صلة وثيقة بتكريس القوة أكثر من كونها ذات صلة بتأكيد الحقيقة التاريخية.

في الخطاب البلاغي لهذه المدرسة، تحضر اتهامات جاهزة مثل العنف، والإرهاب، والرجعية، والعداء للحدثاء والديمقراطية باعتبارها قيما غربية، ويقدم كل ذلك كخصائص حقيقية لهذا المكان من العالم. في الفيديو السابق الإشارة إليه، كان فريدمان يغطي النسخة الأردنية من الثورات العربية في الرابع من فبراير/ شباط 2011 في يوم ممطر في وسط عمان. كان الفيديو قصيرا جدا، حوالي 90 ثانية. غير أن وصف فريدمان للاحتجاجات كان حماسيا واحتفاليا. حيث استخدم كلمات مثل الديمقراطية، التغيير، الإصلاح، الحرية، والكرامة.

فقد بدأت الشواهد تترى مؤكدة أن ثمة تحولات نظرية وتقريرات منهجية وحقلية، قد تعني انفتاح الأدب المقارن على حقول جديدة، من ذلك انفتاح الأدب المقارن على الترجمة وقضايا الاتصال والعولمة. ومن ذلك أيضاً ما يعرف الآن بالدراسات ما بعد الاستعمارية أو ما بعد الكولونيالية. والمقصود بها الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمراً، وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تتضمنه تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية وغيرها، للكشف عن استراتيجيتها الخطابية، على النحو الذي يبرزه إدوارد سعيد في كتابه: الاستشراق، والثقافة والإمبريالية.

يأتي إدوارد سعيد في طليعة محلي الخطاب الاستعماري، بل ويعده بعضهم رائد الحقل، فقد استطاع بمفرده أن يفتح حقلاً من البحث الأكاديمي، هو الخطاب الاستعماري، ذلك أن دراسته للخطاب الاستعماري، خطاب تلتمح فيه القوة السياسية المهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافي. غير أن تحليل سعيد جاء مرتكزاً على سياق معرفي وبحثي سابق له، يتضمن أعمال اثنين من المفكرين الغربيين المعاصرين؛ هما الفرنسي (ميشال فوكو *Michel Foucault*) والإيطالي (أنطونيو غرامشي *Antonio Gramsci*) ومن الممكن والحال كذلك اعتبار هذين المفكرين ممن وضعوا أسس البحث في الخطاب الاستعماري، بالإضافة إلى بعض فلاسفة مدرسة فرانكفورت مثل: ثيودور أدورنو *Theodor Adorno*، وماكس هوركهايمر *Max Horkheimer*.

بالنسبة لإدوارد سعيد، فإن توماس فريدمان هو خصم تاريخي للشعوب العربية إن لم يكن عدوها الأول. ولمن لا يعرفه، فإن السيد فريدمان مشهور بتشويهه المتعمد وتعليقاته العنصرية ضد العرب. في هذا الصدد يقول إدوارد هيرمان المؤلف المشارك مع نعوم تشومسكي لكتاب "صناعة الإذعان" إن "فريدمان يتعمد تشويه سمعة العرب



وصفاتهم العاطفية بانتظام، ويلصق بهم صفات الحماقة، والعداء للديمقراطية والتحديث". يرى إدوارد سعيد أن فريدمان ليس سوى "معتوه/موهوب" وتلميذ جيد "للمستشرقين القدامى المحترفين أمثال برنارد لويس" كما وصفه سعيد في مقالته الشهيرة "الحياة بطريقة عربية". فحوى الاستشراقية في أعمال فريدمان سافرة بالنسبة لمن يتبع كتاباته المثيرة للجدل في القضايا المختلفة. كما وصفه نعوم تشومسكي باعتباره بوق من أبواق جميع الحروب الأمريكية التي نشبت في المنطقة خاصة بعد أن أشاد فريدمان بالقصف الإسرائيلي الإجرامي للمدنيين العزل في غزة مشيدا بما قامت به إسرائيل من "تلقيح" سكان غزة درسا مهما.

وأخذا كل ما سبق في الاعتبار، يصبح من المثير جدا البحث عن مثل هذه الأصوات خلال هذه اللحظة الحاسمة في تاريخ المنطقة، وكان هذا مصدر قلق كبير في ذهني عندما كنت أتابع الثورات العربية وتغطيتها في وسائل الإعلام الغربية. أردت حقا أن أرى السيد فريدمان وحفنة من المحافظين الجدد الذين هم من أكثر المنتجين والمستهلكين الحقيقيين لكل الأفكار الاستشراقية السياسية والثقافية على حد سواء. تمنيت بصدق أن أقابل كل من برنارد لويس، صمويل هنتنغتون، فرانسيس فوكوياما، فؤاد عجمي، ريتشارد بيرل، ودانيال بايبس، وتشارلز كراوتهامر... وعددا لا يحصى من المنظرين ذوى التوجه اليميني، من صحافيين وسياسيين، فقط لأقول لهم أهلا بكم في أجواء استشراقية جديدة.

تشيلنتهام - أ ف ب - اعتبر الكاتب الفلسطيني البروفيسور إدوارد سعيد إن انفجار العنف في الأراضي الفلسطينية هو نتيجة اتفاقات أوسلو الموقعة في أيلول سبتمبر 1993 والتي تعكس اختلال التوازن بين قوة الإسرائيليين وقوة الفلسطينيين. وقال سعيد لوكالة فرانس برس على هامش مهرجان أدبي في تشيلنتهام انكلترا غرب لندن أول من أمس الأحد، إن "اتفاقات أوسلو كان لا بد وان تؤدي إلى ذلك لأنها مجحفة وتعكس انعدام التوازن بين قوة الإسرائيليين وقوة الفلسطينيين". وتابع سعيد بالفرنسية: "لست مندهشاً البتة وأقول ذلك منذ 1993... فالنتيجة هي التي ترونها الآن".

وكان سعيد، الذي يعتبر من الوجوه البارزة في القضية الفلسطينية، يتحدث في ختام مؤتمر خصصه للأديب المصري نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للأدب. ويرى سعيد إن أعمال العنف الأخيرة التي شهدتها الأراضي الفلسطينية ليست ناجمة عن قرب التوصل الى اتفاق سلام. وقال الكاتب الذي كان يقدم سيرته الذاتية "أوت أوف بليس" خارج المكان و"ذي ايند أوف ذي بيس" نهاية عملية السلام وهو مجموعة مقالات "حصلت انفجارات عنف كثيرة أخرى في الماضي".

وأكد سعيد انه روع لدى مشاهدته الصور عن ضرب الجنود الإسرائيليين حتى الموت في رام الله، مستطرداً: "لكن في الوقت نفسه يجب أن نفهم الطرف: إذ أن الفلسطينيين مطوقون بالدبابات والمروحيات الإسرائيلية".

وتابع أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا ولاية نيويورك: "انه شعب طرد من منازلهم في 1948 ويعيش تحت وطأة الاحتلال الأطول في القرن العشرين، إذ بدأ في 1967 ويستمر حتى اليوم". وعلى رغم أعمال العنف، أكد سعيد وجوب الاستمرار في المناداة بإقامة "مجتمع متعدد الثقافات"، مضيفاً: "لا نريد مجتمع فصل عنصري كما هو عليه الوضع الراهن، بل على العكس نريد المساواة بين العرب واليهود".

#### الهوامش:

- [1] -E. W. Said, Thoughts on Late Style, the London Review of Books 26. 15 ( August 5, 2004) : P 89.
- 2- رضوى عاشور، الصوت: فرانتز فانون، إقبال أحمد، إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 75 .
- 3-EW Said, Humanism and democratic Criticism, NY : Columbia UP, 2004.P 77.
- 4-Edward W. Said, Humanism and democratic Criticism, NY : Columbia UP, 2004. P 87.
- 5- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط 3، 2004، بيروت ، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص ص 269- 271.
- 6- Frantz Fanon, The Wretched of the Earth, Constance Farrington, ( N. Y. : Grove Press, 1968 ), P 15.
- 7- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط 3، 2004، بيروت ، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص 270.
- 8 - إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط 3، 2004، بيروت ، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص 276.
- 9- إدوارد سعيد، المقاومة والثقافة، ترجمة ينال قاسه، 2006، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
- 10- إدوارد سعيد، المقاومة والثقافة، ترجمة ينال قاسه، 2006، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع. ص 7.

---

[1] -E. W. Said, Thoughts on Late Style, the London Review of Books 26. 15 ( August 5, 2004) : P 89.

[2]- رضوى عاشور، الصوت: فرانتز فانون، إقبال أحمد، إدوارد سعيد، مجلة ألف، العدد 25، السنة 2005، ص 75 .

[4]- Edward W. Said, Humanism and democratic Criticism, NY : Columbia UP, 2004.P 77.

[5] -Edward W. Said, Humanism and democratic Criticism, NY : Columbia UP, 2004. P 87.

[6]- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط 3، 2004، بيروت ، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص ص 269- 271.

[7] - Frantz Fanon, The Wretched of the Earth, Constance Farrington, ( N. Y. : Grove Press, 1968 ), P 15.

[8]- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط 3، 2004، بيروت ، دار الآداب للنشر والتوزيع، ص 270.

[9]- إدوارد سعيد، المقاومة والثقافة، ترجمة ينال قاسه، 2006، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.

[10]- إدوارد سعيد، المقاومة والثقافة، ترجمة ينال قاسه، 2006، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع. ص 7.